تمثلات الثورة التحريرية في (ألفية الجزائر) لـ إبراهيم قار علي

Representations of the Liberation Revolution in (The Millennium of Algeria) by: (Ibrahim Qar Ali)

كوثر رزقي*
Kawther rezgui
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)
University Mohamed Lamine Debaghine Sétif2 (Algeria)
kawtherrezgui401@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/03/16	تاريخ القبول: 2025/05/17	تاريخ النشر: 2025/06/02

مُلخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن تمثلات الثورة التحريرية الجزائرية في (ألفية الجزائر) لـ: (إبراهيم قار علي)،بغية الكشف عن الوشائج الموجودة بين شعرنا الجزائري المعاصر والتاريخ الوطني /الثورة التحريرية، ولعل أهم تساؤل يفرض نفسه علينا هو: إلى أي مدى ساهمت ألفية الجزائر في استدعاء الثورة التحريرية ؟ وكيف استطاع (إبراهيم قار علي) مقاربة حضورها في ألفيته؟

الأمر الذي تكشفت معه موهبته في العودة إلى رحم الذاكرة التاريخية وتقديم الثورة التحريرية بمعاركها الصاخبة وبطولات رجالها ونسائها إلى غاية تحقيق الاستقلال بطريقة سرد شعرية تجعلها ماثلة أمام المتلقي.

الكلمات المفتاح: تمثلات، ثورة، تحرير، ألفية الجزائر، إبراهيم قار علي.

Abstract :

This study seeks to explore representations of the Algerian Revolution in Ibrahim Qar Ali's "Al-Alfiyyah Al-Jaza'irah" (The Millennium of Algeria), with the aim of revealing the existing connections between our contemporary Algerian poetry and national history/the Revolution. Perhaps the most important question that imposes itself upon us is: To what extent did the Millennium of Algeria contribute to summoning the Revolution? And how was Ibrahim Qar Ali able to approach its presence in his Millennium? This revealed his talent for returning to the womb of historical memory and presenting the Revolution with its tumultuous battles and the heroism of its men

* كوثر رزقي kawtherrezgui401@gmail.com

and women until independence was achieved in a poetic narrative style that makes it vivid for the recipient.

Keywords: Representations, revolution, liberation, the millennium of Algeria, Ibrahim Qar Ali



المقدمة:

إن الباحث في المتن الشعري الجزائري المعاصر يجد حضورا بارزا للثورة التحريرية، فهي أسهمت في شحذ قرائح الشعراء فنظموا فيها قصائد كثيرة تعبر عن أمجادها، وتمثلها في شكل سرد شعري متميز في إبداعه ومن بين هؤلاء الشعراء (إبراهيم قار علي)، فالثورة التحريرية وجدت صدى في نفسه، فلا تكاد تمر مناسبة وطنية دون أن يشيد بها معتزا، وأن يتحدث عنها مفتخرا، وهو في ديوانه (ألفية الجزائر) لم يقدم تاريخ الجزائر إبان الثورة التحريرية فحسب، إنما قدم تاريخها منذ القدم إلى يومنا هذا، ونحن في هذا المقام ارتأينا أن نسلط الضوء على مرحلة الثورة التحريرية، لنبرز تمثلاتها في بنياته ونكشف عن العلاقة الموجودة بين شعرنا الجزائري المعاصر والتاريخ الوطني /الثورة التحريرية.

وقد انطلقت الدراسة في رسم حدودها بإثارة بعض التساؤلات من بينها: إلى أي مدى ساهمت ألفية الجزائر في استدعاء الثورة التحريرية؟ كيف استطاع (إبراهيم قار علي) مقاربة حضورها في ألفيته؟ كيف صور أحداثها ومعاركها وشخصياتها؟ هذه التساؤلات وغيرها حاولنا أن نجيب عنها من خلال المقاربة التطبيقية لنصوص الديوان التي ولجناها عبر مداخل متنوعة، افتتحناها بمقدمة ثم انتقلنا إلى الحديث عن حادثة المروحة وعلاقتها باحتلال الجزائر ثم تطرقنا إلى عنف الاستعمار وشراسته التدميرية لنسلط الضوء في مرحلة لاحقة على كيفية تصدي الشعب الجزائري لهذا الاستعمار وصولا إلى الحرية واسترجاع السيادة الوطنية وأنهينا الدراسة بخاتمة تبرز أهم ما توصلنا إليه من نتائج.

أولا: حادثة المروحة وعلاقتها باحتلال الجزائر

احتضنت (ألفية الجزائر) تاريخ الثورة التحريرية بدءا من حادثة المروحة التي حدثت بين (الداي حسين) والقنصل الفرنسي (بيار دوفال) قنصل باريس في الجزائر حيث تعتبر هذه الحادثة الذريعة التي افتعلتها فرنسا لفرض الحصار على الجزائر ثم احتلالها سنة 1938، وقد حاول (إبراهيم قار علي) سرد هذه الحادثة بطريقة شعرية يقول فيها:

هَلاَّ سَمعتُمْ عنْ حديثِ المروحَه
هذا حديثُ خرُافةٍ ما أقبحَه
هيَ غَضْبَةُ الداي الحُسينِ ذَريعة
للغزوِ والأسبابُ غير مُصَرّحَة
مَا كَان دُوفَالُ سِوى أضْحوكةٍ
بُوتَانُ عَبّدَ للغُزاة المَذبحة
كُتّا الكرام فإذا اللئامُ تمردوا

شَـبِعتْ فَرنْسَا أصبَحَتْ مُتَرَنِحة

وَيْلَ الجزائرِ من يهودٍ ويْلهُمْ

لا خَيْر فيهم حين تقْضِي المَصْلحَة"[1]

يعود الاسترجاع السردي إلى مرحلة ما قبل الاستعمار ويقدم الشاعر تفاصيل دقيقة عن الذريعة التي اتخذتها فرنسا لاحتلال الجزائر بينما الأسباب الحقيقية والغير مُصَرّحَة هي أنها كانت تنوي احتلال الجزائر منذ مدة طويلة طمعا في خيراتها، فبعد أن قضت مصالحها اتخذت من هذه الحادثة ذريعة لاحتلالها ومبررا لارتكاب جرائمها البشعة.

ثانيا: عنف الاستعمار وشراسته التدميرية

قام الاستعمار الفرنسي بجرائم رهيبة في حق الشعب الجزائري وقد قدم الشاعر وصفا للعديد من هذه الجرائم في أماكن مختلفة من أرض الوطن على غرار سجن (سركاجي)

يقول:

"مَهلاً رُويدَكَ هَا هُنَا سَركَاجي

قِفْ بي هنا لنطُوفَ كالحُجّاجِ "[2]

فالشاعر هنا يقف ويستوقف على طريقة القدامى ليسرد ما كان يحدث في هذا المكان(سركاجي) أو سجن (بربروس) وهو يعد من أقدم السجون وأشهرها في تلك المرحلة، وهو المكان الذي أعدم فيه (أحمد زبانا) وتلقى فيه العديد من المناضلين والمجاهدين أشد انواع العذاب والتنكيل يقول:

"السّيفُ يَقطُر من رُؤوسٍ أينعتْ

حَتى تكَسر في يَدِ الحَجاجِ

هذا دَمُ مِنْ مُعْصِراتٍ مُنْزَلٌ

وَلرُبَ مَاءٍ بَلْ دَمِ ثَجّاجِ

هذي الدماءُ كَمَا الجَداولِ قدْ جَرتْ

وتَلاطَمتْ في البَحرِ كالأمواجِ"[3]

فالشاعر هنا يقدم صورة مأساوية لهذا المكان الرهيب الذي يوحي بالسلبية والألم والموت، وإلى العنف والدموية والاضطهاد بسبب استبداد العدوان وقسوته، والذي تكشف عنه الألفاظ التالية: (السيف يقطر، الدماء كما الجداول) وهي كلها مفردات توحي إلى العذاب والآلام التي كانوا يعيشونها في هذا السجن "ودروس السجن بليغة حكيمة فهو بحق أهم مدرسة للثوار والمناضلين، مصاعبه ومصائبه هي في الأصل زبدة الخبرات التي يكتسبها الإنسان بالتجربة والممارسة، النهار هناك طويل ممتد يزيد حجما ووزنا عن اليوم العادي، الصراع متواصل هناك ليصمد التحدي وتنتصر الإرادة الفولاذية، إنها همة الرجال وعزيمة الأبطال"[4] فلا مكان للاستسلام فهم يدفعون دمهم لتستمر الحياة " فالدم يديم الحياة وينهض بها "[5]

في مقطع آخر يكشف فيه عن التجارب النووية التي قامت بها فرنسا، واهتزت من هولها منطقة (رقان) يوم: 13 فبراير 1963على وقع انفجارات ضخمة مريعة، أشبه ما تكون بالقصف الذري الذي شنته أمريكا على ناغزكي

وهيروشيما، لتجعل الجزائريين بمثابة فئران تجارب نووية في أبشع جريمة ضد الإنسانية لم يسلم منها لا الحيوان ولا النبات ولا الجماد يقول:

ويلُ الجنوبِ قنابل ذَرّيةٌ
ولَكمَ أُبيدتْ هَا هُنا ذُرِّيةُ
هَيهات نَاغَزَكي وَلا هَرشِيمَةُ
رَغَّانُ أنتِ حبيبتي الغجريّةُ
قد أصبحَ الإنسانُ فأرَ تجارِبٍ
لم تنجُ حتى أرانبُ بريةُ
أفلامُ رعبٍ والخيالُ حَقيقةُ
لا حِيلةُ أو خُدعةُ بَصرية"[6]

فالجرائم النووية التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في منطقة (رقان)، هي جرائم أقرب إلى الخيال وإلى الخدع البصرية ولا يمكن للعقل أن يصدقها، فهي خلفت آثارا ثقيلة تركت بصماتها إلى يومنا هذا.

وتواصل المقاطع بثها المأوزم، ويواصل الظلام امتداده حتى يشمل كل الجهات وكل القرى والمداشر ليقدم لنا الشاعر مقطعا يصف فيه ما حدث في قبلية (أولاد رياح) وهي من القبائل الجزائرية التي ضربت أروع الصور في المقاومة الشعبية، فانتقمت منها فرنسا بإبادة جماعية حيث أحرقت أكثر من ألف ضحية داخل مغارة (الفراشيح) في جبال الظهرة في الغرب الجزائري[7] يقول:

"نَاديتُ مَا في الغَارِ مِنْ أحَدٍ هُنَا
البُومُ والغِربَانُ والأشْبَاحُ
ما لِلفراشيحِ المَغارَةِ لَمْ تُجبْ
وتَرُدُّ في الغارِ الصَّدى الأرواحُ
طِفل يعانقُ أمَّه متفحمُ
يَستصْرخانِ فَمَا يُفيدُ نُواحُ "[8]

تمكن الشاعر/السارد من استحضار هذه المجزرة بفاعلية حية وديناميكية عالية، تتفاعل فيها الشخصيات بالأفعال حتى تتبنى مشاهد تكاد تكون محاكية لهذه الواقعة التاريخية المرعبة، في هذا المكان الذي غابت فيه عوامل الإشراق والحيوية، فالظلمة كانت سيدة الموقف وهو ما توضحه الدوال الآتية :(البوم، الغربان ،الأشباح) فهي دوال تحيل إلى الوحشة والخوف وعدم الأمان، لتتوالى المشاهد في هذا المكان وتتآزر مع الأصوات وهو ما توضحه الدوال (ناديت، يستصرخان، الصدى، نواح)" والصوت هنا يدخل كعنصر محرك للصورة إذ كثيرا ما يلعب دورا مهما في تقرير قضية التطابق بين الصورة والصوت سواء كان هذا التطابق مطلقا أو نسبيا"[9]

ولا يزال الشاعر /السارد يستحضر سلسلة الجرائم التي قام بها الاستعمار الفرنسي، ويقدم حيثياتها في الزمن الماضي وفق طريقة درامية تميل إلى نزعة السرد يقول:

" لمْ تَنْسَ عام الأربعينَ وخَمسةٍ
لما قَضىَ خَمْسُون ألفِ شهيدِ
لمْ تَنْسَ قالِمةُ ولاَ خَرَّاطةُ
وسطيفُ مذبحةً بيومْ العِيدِ"[10]

إن الدلالة الكامنة في مفردة (لم تنس) توحي إلى مدى بشاعة ما حدث يوم 8 ماي 1945في قالمة وخراطة وسطيف ما جعلها محفورة في الذاكرة وغير قابلة للنسيان، حيث راح ضحية تلك المجازر الدامية خمسون ألف شهيد.

ولا تزال قوى الظلام والفجائعية تتقدم وتسيطر على المواطن الجزائري، فهو عرف أشد أنواع الحرمان والتعذيب والتشريد والنفي يقول:

"ما كَانَ َ أبشعَ منك كَيانِ
هذِي كَيَانُ جزيرةُ الشيطانِ"[11]

تأخذ عوامل السلب بالاشتغال في المكان بدءا من البيت الأول، ثم يقول في المقطع ذاته:

"إني أنا المنفي ُ مالي عودةُ
أمضي ولا أدري بلا عُنوانِ
عجباً نساق كما البهائمِ ويْلنَا
ونُزجُ في الأقفاص كالحيوانِ
هذي السلاسلُ في أيَادِينَا وَفي
أعْناقنَا الأغْلالُ للأذقانِ
سَوطٌ على ظَهري وَجِلدي ناضِجُ
والآمَ أبقَىْ في العَذاب أُعاني
ولقد حُملنا والسفينةُ أقلعتْ
لَم ْنَخشَ منْ بَحرٍ ولاَ طُوفانِ
إنا حُشرنا كالوحوش بجوفها
تجري بنا في أعين الرحمان" [12]

فهو هنا يقدم وصفا دقيقا للمنفي والمعاناة التي يعانيها وهو متجه إلى هذا المكان المعادي ، أين تلقى أشد أنواع التعذيب والتنكيل، فالاستعمار الفرنسي كان يعمل على طمس الشعب بشتى وسائل الإجرام والتعذيب (السوط ، الأقفاص، السلاسل...) ورغم ذلك لم يستسلم ولم يعرف الوهنُ إلى نفسه سبيلا، فإيمانهم بالله وحبهم لوطنهم وثقتهم بأنفسهم جعلهم يتحلون بالوعي ويتسلحون بالإرادة والصمود لكي لا يكون مآلهم الشتات والفناء ،ولهذا نجد الجزائري حتى وإن استُبعد عن وطنه فهو يظل يحمله في قلبه أينما حل وارتحل، فروابط الانتماء إلى الوطن تزداد كلما شعر الإنسان أن الظروف تحارب هذا الانتماء.

ولا يزال الاضطهاد والقمع الشديد والقتل والتنكيل يلاحق الجزائري حتى وهو في المهجر، ففي يوم17 أكتوبر 1961 قامت الشرطة الفرنسية بالهجوم على المتظاهرين الجزائريين وقتلهم ورميهم من جسور نهر السين الشهير، حتى طفت الجثث على مساحة المكان وجرى النهر بدماء الجزائريين. يقول الشاعر في وصف هذه الجريمة:

السّينُ يجري مِنْ زَكيّ دِمانَا
يا أيُها النهرُ اللعين كفانَا

هيهاتَ تُمحى ذكرياتُ من دم
إن الجرائم ترفض النسيانا"[13]

ففرنسا تفننت في تعذيب الشعب الجزائري بمختلف الوسائل وبمختلف الطرق اللاإنسانية ما جعلها غير قابلة للنسيان وكيف ينسى الإنسان هذا الواقع المر الذي جعله " مذبوحا في براءته مسروقا في لقمته ومهددا في بيته"[14] فهذه الأحداث الكارثية وهذا الجو المشحون برهبة الموت والدم ترك جرحا نازفا لا يمكن تضميده إلا بالتلاحم والثقة في النفس واليقين بالنهوض للخروج من هذا الواقع المأساوي.

ثالثا: التصدي للاستعمار ورد الاعتبار

بعد أن قدم الشاعر/السارد في المرحلة السابقة الذريعة التي قام بها الاستعمار والجرائم البشعة التي قام بها، نجده في هذه المرحلة يدخل ساحة النضال والحماس من أوسع أبوابه، باب تشكيل الوعي الثوري والتصدي للواقع المزري والمقاومة لتضميد الجراح.

فإذا كان الاستعمار قد تفنن في تعذيب الشعب فإن الشعب لم يستسلم ولم يرضخ له منذ الوهلة الأولى، فهو أيضا تفنن في التصدي والتحدي، فالواقع المفجع أذكى فيه روح الوعي للوقوف على قدميه وجعله يخطو خطوته العملية إلى تغيير الأوضاع فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة وكانت ثورة الفاتح نوفمبر1954" من الثورات التي قلبت المفاهيم في تاريخ الثورات ،وهي تعد منعطفا تاريخيا في سياسة الثورة الجزائرية وموقفها من الأساليب اللاإنسانية، والوعود الكاذبة التي كانت تضربها فرنسا للشعب الجزائري إلا أنه كان لا يعترف بالأماني المعسولة ولا يؤمن إلا بالقوة "[15] فكانت ليلة الفاتح من نوفمبر هذه الليلة المباركة من هذا الشهر المبارك فاتحة خير على وطننا والشرارة الأولى لتغيير الموازين يقول :

"اللهُ أكبرُ ومن سواك يُكبَر
سُبحانك اللهم أنت الأكبَرُ

هَا قَدْ أزلتَ الشَّكَّ ليلةَ مَوْلدٍ
هيَ ليلةُ الميلادِ أنتَ تُقَمْبَرُ

شَهرُ تباركَ في السماءِ ولم يَزلْ
شَهْرَ الشهورِ على المدى يتكَرَرُ

هذا هِلالُكَ في السماء مباركٌ
فتحٌ من الله العظيمِ مُؤَزَّرُ

في الليلةِ الظلماءِ لعلعَ فاتحُ
فتحُ الفتوحِ وإذا السماءُ تفَطَّرُ
قدْ جاءَ نصرُ الله والفتحُ الذِي
كُنَا به من رَبنا نَسْتبَشرُ
يا للقيامةِ بَلْ قِيامةُ شَعبْنَا
مِنْ بعَدِمَا قَدْ كَانَ يوما يُقبر
قَد قيل ماتَ ولا حياة لميتٍ
وإذا عِظامُ في القبورِ تُبَعثرُ
قَد ْمزقَ الأَكفانَ من أجداثِهِ
سبحان من يحي العظام وينشرُ
أحييتنا قبل النشورِ بَعثتنَا
وإذا بنا شعب يثور ويثأرُ"[16]

القصيدة تشع بالأمل والثقة بالانبعاث والولادة الجديدة بعد الموت كالفنيق الذي يولد من الرماد لاقتناع الثوار وإيمانهم الثابت بالحرية والاستقلال، يقول:

" ثُرنَا وليسَ لثائرٍ من عودةٍ
يا قاتِلُ أو أنه مقتولُ
لا عُذْرَ لا تعويضَ نَقبَلُ عن دَمٍ
هذا مُحَال والدماءُ سُيُولُ"[17]

هكذا يتلاحم أبناء الشعب ويسيرونَ على سد درب مطامح الاستعمار، فالمقاومة ظلت عنوان الحضور ولا مجال للاستسلام(ياقاتل أو أنه مقتول) ولا مكان للتراجع ولا لتقديم الأعذار الواهية أمام تفاقم عوامل السلب والدمار، فالشاعر/السارد يكشف عن البطولات والفداء والشجاعة والاحتكام إلى كفاح الشعب وقوة عزيمته واستمرار نشاطه النضالي، لتحقيق الانتصار وتحرير الوطن من ربقة الاستعمار، فبقاء الاستعمار في الجزائر ضرب من الخيال وهو ما يوضحه الدال (محال) الذي يعني إقرار اليقين في الفعل، خاصة وأن الضريبة باهظة وهي الدم والدم كما يقال: يديم الحياة ويفجر كوامن النهوض والانبعاث من جديد ويصنع الحياة الحرة الكريمة ويخلص الشعب من ظلمات الذل والهوان .

فالشعب الجزائري" ارتمى في أحضان الثورة بكل ما لديه، ولم يبخل بالنفس والنفيس، في سبيل أن تحيا الجزائر عربية مسلمة مرفوعة الرأس وموفورة الكرامة"[18] فهو وعى طبيعة الصراع مع العدو وهو ما يستوجب تكثيف الجهود وتجنيد كافة الطاقات للانتصار عليه، فهذا الوعي جعله " يرتمى على غمرات غير هياب لها، وأدرك أن الحرية والحياة العزيزة مهرها غال، فراح يدفع هذا المهر من روحه، وقد آمن أن الحياة عقيدة وجهاد وبأن بلوغ المجد لا يكون إلا على جسر من التضحيات، فراح يقطع هذا الجسر على أكباده"[19] يقول:

" هيهاتَ بالإعْدامِ تُعدَم ثورة
فَغدًا سَتزهرُ في الربيعِ مقابرُ
سِرْنَا وما عُدنا نخاف من الردى
قَدْ أصبَحتْ منا تَخافُ مخاطِرُ"[20]

هكذا تنعكس العلاقة بين المخاطر، فالشعب في هذه المرحلة لم يعد يهاب من المخاطر إنما هي التي أصبحت تهاب منه يقول:

قد كانَ يومَ الامتحانِ نُقَمْبِرُ
نحنُ السؤالُ ولا نُريدُ جوابَا
هذي الجزائر يا فرنسَا إنها
لكِ في جهَنمَ تَفتحُ الأبوابَا
ولْتحفِري بيديكِ قبركِ هَاهُنَا
وعليكِ أيدِينَا تُهيلُ تُرابَا
ذُوقي فإنكِ أنتِ أنتِ عزيزةُ
ما ذُقتِ من قَبْلِ العذابِ عذابا
هذا حَمِيمُ فاشربي من كأسِنَا
بئسَ الشرابُ ومن يُسيغُ شَرَابَا "[21]

ثمة حشد حواري وسردي وتصويري ووصفي في هذا المقطع، يكشف عن تماسك المشهد الشعري وتلخيص طاقته السردية، فميلاد الثورة التحريرية عزز فيهم الأمل وثبت ثقتهم بأنفسهم وقوى عزائهم، فهم أصحاب الكلمة وأصحاب القرار وأصحاب السؤال ولا يريدون أي جواب أو تبرير من فرنسا، سوى دفع ثمن جرائمها، فدوال السخط والغضب واضحة في النص، وهو رد فعل طبيعي من شعب تحتل بلاده ويقتل أبرياؤه وتنتهك حرماته، فهذا يستوجب الثورة والضرب بيد من حديد لكل من تسول له نفسه المساس والتعدي على أعراض العباد والبلاد.

ويتوافد الشعب على النداءات والدعوات إلى تحرير الوطن، ويحتضن الشعب جيشه ويشاركه نضاله ويتحمل معه مسيرته الشاقة، ليغدو الانصهار بينهما أشد فاعلية والتجاوب أقوى صدى يقول:

" الشَّعبُ يحضنُ جَيْشَهُ ويَضُمُّه
وإلى الأمَامِ بِصدرِهِ يتَقَدمُ
فأس ومجرفة وفي اليد مِنجل
حَانَ الحصادُ ونِعم هذا الموسمِ
هذي الرؤوسُ رؤوسكم قد أينعتْ
حان القِطافُ ونحن من يتكرمُ"[22]

فالمقطع يكشف عن التلاحم بين أبناء الوطن في ساحات الوغى بعد الاضطهاد والغطرسة التي كان يعانيها من طرف الاستعمار الفرنسي، ويرفع راية المقاومة عاليا (هذي رؤوسكم قد أينعت/ حان القطاف ونحن من يتكرم) فهو هنا يستحضر المقولة الشهيرة للحجاج بن يوسف الثقفي التي قال فيها: "والله إني لأرى رؤوسا قد أينعت وقد حان قطافها"[23]

فالجزائر ولادة للأبطال ولها أسد تزمجر في رباها وفي كل شبر من ترابها، وهم على أهبة الاستعداد للدفاع عنها وصون سيادتها ولن يسمحوا لأي أحد أن يجرأ على التطاول عليها يقول:

"حُبلى الجزائرُ أرْضها رَحِمُ الفدَى
لِلهِ أبطال تموتُ وتولدُ
يا للبطولةِ هَا هُنا عنوانُها
صرنا عليها يا جزائرُ نُحْسَدُ"[24]

فتاريخ الجزائر حافل بالبطولات والأمجاد فهي أنجبت على مر العصور" رجالا عظماء خلدهم التاريخ في صفحات الأدب والفكر والفن والمعرفة والنضال والمواقف المشرفة"[25] ولعبوا دورا كبيرا في الدفاع عن ترابها والتصدي للمحتل، وحين وصفها الشاعر ب:(حبلى) فإن كل مظاهر الغنى والخصب والحياة تتجلى فيها، فهي عامرة بأبطالها، الأمر الذي جعلها عرضة للحسد من طرف الآخر.

وقد عمد الشاعر إلى ذكر العديد من الشخصيات التاريخية الوطنية البارزة في ألفيته، ومما لا شك فيه أن استدعائه لأي اسم من أسماء هذه الشخصيات ليس جزافيا وإنما يهدف إلى " تقديم وظيفة إشعاعية في النص، إذ أننا فور قراءتنا له نستدعي من ذاكرتنا ما يقترن به من ظلال وإيحاءات ودلالات، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى استحضار مرحلة تاريخية كاملة مقترنة به "[26]

من بين الشخصيات التاريخية التي سلط الضوء عليها، ونقلها من التاريخ إلى واقع نصي آخر اتسع بالكشف عنها وعن مسيرتها، نجد: (الأمير عبد القادر) (الأمير خالد) (أحمد باي) (الشيخ محمد أبوعمامة) (زيغود يوسف) (مصطفى بن بولعيد) (العربي التبسي) (عباس لغرور) (علي معاشي) (مسعود اوزلماط) فهذه الشخصيات اللامعة وغيرها قدمها وعبر عن بطولاتها ومواقفها وتصديها للاستعمار وانتصاراتها في مختلف الأمكنة والأزمنة يقول:

لله أو زلماطُ يامَسْعُودُ
أوراسُ يَالكَ شَاهدُ مَشْهُودُ
كَم للجزائرِ كَم لهَا أسْطوُرةُ
الله أكبر والجبال شُهودُ
قسَّما سَنحيَا سادة في أرضنا
وإلى متى دون الأنام عبيد"[27]

كشف لنا المقطع صورة عن أبطال الجزائر، الذين تجمعهم المشاعر الصادقة ويجمعهم الدرب والنضال والكلمة الواحدة، وهو ما جعل بطولاتهم أشبه بالأساطير، كما كشف عن أسماء لأماكن لها معاني رمزية باعتبار أن المكان يعد

البؤرة الأساسية التي يقوم عليها النص، وهذه الأماكن ليست أماكن في الخارطة الجغرافية فقط، إنما تضع القارئ أمام الحصون المنيعة للثورة التحريرية التي كان المجاهدون يستمدون منها القوة والمناعة، فالأوراس يرمز إلى الشموخ والكبرياء والصمود، والجبال الشامخة لا يطؤها إلا ذوي البسالة والصلابة، فالأماكن هنا ترمز إلى بقاء الشعب الجزائري وثباته، وهي بمثابة الشواهد على ما حدث له، ورغم ذلك لم يفقد الأمل بتحقيق النصر والتغلب على المحن وصناعة حياة جديدة، فهو أقسم على أن لا تأخذ فرنسا أطماعها ولا تحقق مبتغاها وبأنه سيبقى سيدا في أرضه، فالجزائري بحكم طبيعته الفيزيولوجية لا يقبل الذل والهوان .

ولم يقتصر الفداء والبطولة على الرجال فقط، إنما كان للمرأة أيضا حضور بارز إلى جانب إخوانها، أما كانت أو أرملة أو زوجة فهي كانت رفيقتهم في الدرب والنضال وهي في تلك المرحلة لم تكن أما فحسب، إنما كانت الأخت الوفية والبنت المناضلة، والأمينة على أسرار الثورة رغم وسائل الاستنطاق الرهيبة، والمقبلة على المخاطر -مهما كان نوعها - دون خوف أو هوادة، فهي لا تعرف معنى اليأس ولا الاستسلام تحت وطأة الضربات القاسية.

من بين الشخصيات التاريخية التي تعد رمزا للمرأة الجزائرية المقاومة نجد (لالة فاطمة نسومر) التي قادت المقاومة الشعبية ضد القوات الفرنسية يقول فيها:

"بنت الجزائرِ سُوْمَريةُ حُرةٌ
بنتُ الكرامِ أَكَارِمٌ ومَكَارِمُ "[28]

ثم يقول في القصيدة ذاتها

أعظم بْهَا امرأةٌ تُحاربُ وحدهَا
من ذَا سِواهَا في الجبالِ يَقاومُ
كَم من جنيرالٍ تمرغَ أنفُهُ
من تحتِ كَعْبِكِ قد أتاكِ يساومُ
كالكلبِ يَلهثُ قد أضَلَّ طَريقهُ
قَدْ فَرَّ يَجري دُونَ وجْهٍ هَائِمُ
تَبكي كما تبكي النساءُ عساكرٌ
حاشَا النساءِ فإنهنَّ هوانمُ "[29]

كشف لنا المقطع صورة المرأة الجزائرية الثائرة والمجابهة لكل ما يُعيقها عن تأدية واجبها تجاه وطنها وأبنائه، وكشف لنا عن الدور البطولي لها فروح التمرد والتحدي تسري في عروقها، فهي صاحبة موقف وقرار تعرف كيف تلملم جراحها، ولا تعرف معنى الاستسلام ولا الخضوع للأعداء مهما كانت قوتهم واشتد بطشهم، فهي بنت الرجال وأخت الرجال علمتها التجارب أن الحرية تؤخذ بالقوة ولا تعطى، والمرء إما أن يكون حرّاً أو لا يكون.

فحب الوطن المنغرس في أعماقهم جمعهم ولم يكن هناك فرق بين الرجل والمرأة ولا بين الشمال والجنوب ولا الشرق والغرب، فكلهم أبناء الجزائر ويشكلون كيانا بشريا واحدا يقول:

" لله حُبكِ ياجزائر خالص

إن الجزائر قطعة من قلبنَا
هذا هوانا من هواكِ ومَا لنَا
أعظِم به ذاكَ الهوىَ من حُبِنَا
إن الجنوبَ كما الشمالِ إذا شَكَا
إنْ صَاحَ شرق أنَّ مَنْ في غَرْبنَا
نَحنُ الصدى والصوتُ صَوتُكِ إن دَعَا
نادى المنادي والمجيبُ بجنبنا"[30]

فالشاعر هنا يتناص مع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى" [31]وقد شبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالجسد الواحد، وهو غاية التضامن والتآلف.

ومنه يمكن القول: إن النضال الذي قام به الشعب الجزائري هو نضال جمعي، وشعارهم في ذلك هو الوحدة وحدة التراب الوطني ووحدة الهدف المنشود وكذا وحدة المصير المنتظر، ولهذا كانت الجهود متضافرة فيما بينهم لإفشال خطة الاستعمار الفرنسي الذي لم يدخر أي جهد لزرع التبدد والتصدع بينهم.

والجهاد لم يقتصر على السلاح فقط إنما على العلم أيضا، فطلب العلم ونشره من الجهاد أيضا، فلقد أدت النوادي والجمعيات الدينية والمساجد دورا كبيرا في المحافظة على الحياة الدينية والفكرية للشعب الجزائري، وساهمت في التوعية والإصلاح وتحرير العقل من براثن الاستعمار وترسيخ قيم الدفاع عن الوطن. يقول:

هَذي المَساجدُ والمدارسُ قَلْعَة
تزدان بالطُّلابِ والقراءِ
ما العِلمُ إلا كالجهادِ فَريضَة
ليسَ المدادُ سوى دَمِ الشُّهداء
أنتم وقود الثورة الكبرى وقَدْ
كنتم لها في الحرب خير فداءِ"[32]

ويقول في مقطع آخر

"هذي الزوايا للجهاد قواعد
واللوح سَيف في يد القراء"[33]

فالمدارس والزوايا كانت بمثابة السيف في وجه الاستعمار، لما أدته من دور بارز في مقاومته، والتصدي لمشاريعه التي كان يهدف من خلالها إلى طمس المرجعية الدينية والوطنية.

رابعا: الحرية واسترجاع السيادة الوطنية

عندما نتحدث عن الحرية نستحضر قول المفكر مالك حداد: "إن علينا أن نبحث عن تعريف الحرية لا في المعاجم بل في منحدرات جبال الأوراس وجبال جرجرة وفي شوارع القصبة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة، إن علينا

أن نبحث عن الحرية في هذه الأماكن التي شهدت غضبة الشعب الجزائري، ومن أجلها وقف حصنا منيعا في وجه الاستعمار الذي قام ضدنا، عالم يدعي انه حر وصاحب حضارة"[34]

فالحرية هي أعز ما يملكه الإنسان في هذه الحياة وأسمى ما يسعى إليه، ليحقق من خلالها ذاته، والشعب الجزائري دفع الثمن غاليا لينال حريته ويعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، فالشعب المضطهد مهما حاق به الظلم ومهما كان ما يلاقيه من عذاب فهو شيء عابر، وسيأتي اليوم الذي تلتئم فيه الجروح التي أثخنت جسده وتعم فرحة الاستقلال واستعادة السيادة الوطنية، يقول:

"نجم تلألأ فوقنا وهلالُ
بالعيدِ هلَّ وعيدنَا استقلال
هَلتْ عَلَيْنَا في البلاد بشائر
تزهو الصبايا يزدهي الأطفال
ولقد أتانا يوليو ضاحكًا
يَمشي الهوينا حولنا يَخْتَالُ
هذا شُعاع الفجرِ نَقتلُ خَيطَهُ
يا مجدُ قد مُدَّتْ إليك حِبالُ
الشمسُ تَطلعُ والليالي تَنْجَلي
بالنورِ تشرقُ في الصباحِ جِبالُ"[35]

تسيطر على المقطع أجواء النور والإشراق والولادة الجديدة والطاقة التفاؤلية القادرة على مواجهة ذلك الكم الهائل والمتراكم من عوامل السلب والدمار، فيوم الخامس من شهر جويلية عام 1962 يوم تاريخي تحقق فيه المبتغى وتحولت فيه الدموع والدماء الى مواكب أفراح، فخرج الشعب مكبرين مهللين شاكرين لله ساجدين له داعين منه أن يديم عليهم هذه الفرحة، يقول:

"الله أكبر والقلوب حناجرُ
شكرًا سجدنا كُلنا لله
يافرحة استقلالنا دومي لنا
يا بَسمة ارتسمي بِكل شفاهِ
اليومَ عيد والصبايا ها هُنا
والزغرداتُ تموجُ من الأفواهِ
كل يغني هاهنا مترنم
كالجدول الرقراق بالأمواه"[36]

ويواصل القول في المقطع ذاته:

" لقدِ انجلى ليلُ طويل جاثم

فوقَ الصدورِ فلا صدى للآهِ
لأن الحديدُ لنَا فكَانَ لبَاسُنَا
فإذا الحديدُ يذوب مثل مياهِ
لك يا بلادي في الصباح بشائر
يا للصباحاتِ الجميلةِ وَاهِ
أمحمّد عادت إليك جزائر
للهِ ولتَفْخُرْ بنا وتُباهي"[37]

ففرحة الاستقلال عارمة، توجت بالزغاريد وبتغني الرجال والنساء بأهازيج النصر والحرية معلنين عن انجلاء الجاثوم والليل الطويل الذي استمر لسنوات عديدة لتنتهي الأحزان وتشرق شمس الحرية وتبعث الحياة من جديد في وطننا الغالي.

الخاتمة والنتائج:

هكذا تمثلت الثورة التحريرية في ألفية الجزائر فالشاعر اندمج مع الثورة التحريرية بأحاسيسه وقلبه وعقله، فتفاعل معها وصور أحداثها ومعاركها ودراما الموت المنتشر في كل زاوية من زوايا هذا الوطن، بطريقة سرد شعرية متفردة تكشف عن براعته في جمع ما قرأ وإعادة صوغه شعريا، خاصة وأنه واصل دراسته العليا في قسم التاريخ تخصص تاريخ الثورة الجزائرية، فهذا يكشف عن تمكنه في مجاله، فالمبدع يلتقط من الحياة ما نراه وتقرأه ونسمعه جميعا لكنه يشكله بطريقة غير مألوفة.

- حاول الشاعر أن يرصد معاناة الشعب الجزائري بعد حادثة المروحة ودخول الاستعمار إلى وطنه، وكيف عانى الويلات سواء داخل الوطن أو خارجه.

- في مرحلة لاحقة انتقل من مواقع سلبية وقاتمة، بسبب الاحتلال وما خلفه من جرائم بشعة ودمار وخراب، إلى مواقع أكثر إيجابية حين بدأ في تصوير الثورة وكيف عقد الثوار العزم على الدفاع عن وطنهم واسترجاع حقهم المسلوب، فهو حاول أن يقدم صورة مشرقة عن أبناء وطننا في اتحادهم وتكتلهم وحبهم لوطنهم.

-ثم عبر عن الحرية كهدف نبيل ضحى من أجله الشعب بالنفس والنفيس من أجل استرجاعها واسترجاع السيادة الوطنية، ليوثق في الأخير تفاصيل النصر الذي جاء بفضل تضحيات كبيرة، والفرحة العارمة التي عاشها الشعب الجزائري يوم 5 جويلية 1962.

هوامش:

[1] إبراهيم قار علي،2023، ألفية الجزائر، ط1، الجزائر، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص52.
[2] المصدر نفسه، ص112.
[3] المصدر نفسه، ص112
[4] بلقاسم بن عبد الله ،1990، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص122.

[5] بشرى البستاني،2015، وحدة الإبداع وحوارية الفنون، ط1، عمان، الأردن، فضاءات للنشر والتوزيع، ص90.
[6] إبراهيم فار علي، ألفية الجزائر، ص114.
[7] إبراهيم قار علي، الفية الجزائر، ص
[8] المصدر نفسه، ص 74-75.
[9] سيرجي ايزنشتاين، الاحساس السينمائي، تعريب سهيل جبرا، مراجعة إبراهيم فتحي، دار الفارابي، بيروت، 1975، ص80.نقلا عن بشرى البستاني، وحدة الإبداع وحوارية الفنون، ص82.
[10] إبراهيم قار علي، ألفية الجزائر، ص 100.
[11] المصدر نفسه، ص78.
المصدر نفسه، ص78. [12]
[13] المصدر نفسه، ص 118.
[14] بشرى البستاني،2015، وحدة الإبداع وحوارية الفنون، ط1، عمان، الأردن، فضاءات للنشر والتوزيع، ص28
[15] حواس بري،1994، شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 73.
[16] إبراهيم قار علي، ألفية الجزائر، ص 104-105
[17] المصدر نفسه، ص 122.
[18] حواس بري، شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم، ص74.
[19] المرجع نفسه، ص80.
[20] إبراهيم قار علي، ألفية الجزائر، ص 97
[21] المصدر نفسه، ص 106-107.
[22] المصدر نفسه، ص111.
[23] محمد الأمين بن حمادي، أرى رؤوسا قد أينعت...عن خطورة صائدي الرؤوس، أقلام حرة، تاريخ الدخول إلى الموقع: 14مارس 2025، الرابط:https://aqlame.com/node/2612
[24] إبراهيم قار علي، ألفية الجزائر، ص61.
[25] بلقاسم بن عبد الله ،1990، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص11.
[26] عبد الخالق سلمان جيمان2014، الغياب في شعر الحداثة –مقاربات نقدية للشعر العراقي، ط1، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ص69.
[27] إبراهيم قار علي، الفية الجزائر، ص82.
[28] إبراهيم قار علي، الفية الجزائر، ص 70.
[29] المصدر نفسه، ص 71.
[30] المصدر نفسه، ص87
[31] علي بن ناصر فقيهي، 6-5-2009، من وحي السنة، تاريخ دخول إلى الموقع 2025/3/12.
https://ar.islamway.net/article/5194/
[32] إبراهيم قار علي/ ألفية الجزائر، ص92_93
[33] المصدر نفسه، ص63.

[34] هجرسي خضراء(2020)، جويبة عبد الكامل، استلهام الثورة الجزائرية في الشعر العربي (القيم والأبعاد)،مجلة دراسات انسانية واجتماعية / جامعة وهران02 /المجلد 09 العدد 02 /خاص/، ص175.

[35] إبراهيم قار علي، ألفية الجزائر، ص 160.

[36] المصدر نفسه ص 158.

[37] المصدر نفسه، ص 158-159.

قائمة المراجع:

(1)الكتب:

- إبراهيم قار علي،2023، ألفية الجزائر، ط1، الجزائر، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
-بشرى البستاني،2015، وحدة الإبداع وحوارية الفنون، ط1، عمان، الأردن، فضاءات للنشر والتوزيع 2015.
-بلقاسم بن عبد الله ،1990، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.
-حواس بري، 1994، شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم، الجزائر/ديوان المطبوعات الجامعية.
-عبد الخالق سلمان جيمان، 2014، الغياب في شعر الحداثة –مقاربات نقدية للشعر العراقي، ط1، عمان، الأردن، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ص69.

(2): المجلات:

هجرسي خضراء(2020)، جويبة عبد الكامل، استلهام الثورة الجزائرية في الشعر العربي (لقيم والأبعاد)،مجلة دراسات انسانية واجتماعية / جامعة وهران02 /المجلد 09 العدد 02 /خاص/

(3) المواقع الإلكترونية:

-علي بن ناصر فقيهي، 6-5-2009، من وحي السنة، تاريخ دخول إلى الموقع 2025/3/12، الرابط:
https://ar.islamway.net/article/5194/
- محمد الأمين بن حمادي، أرى رؤوسا قد أينعت...عن خطورة صائدي الرؤوس، أقلام حرة، تاريخ الدخول إلى الموقع :14 مارس 2025، الرابط:https://aqlame.com/node/2612